

أشياء فلسطينية

قصته بقلم رشاد أبو شاور

((الى الرجال الذين يصنعون فجر الانسان العربي))

ولا يصدق الناس ذلك .

خرج أبو عرب من خيمته يتأبط مدفعه الرشاش ، والسي جواره أبو جابر وأبو عائد .. رأتهم امرأة الجيران ، احتضنتهم نظراتها باعجاب ودهشة ، وأطلقت زغرودة حارة طويلة وقوية ، هب المعجوز من نومه يلعن ويشتم ..

- الناس اليوم بلا شرف ، لقد فقدوا الخجل والحياء ، الشباب يموتون ، والبعض يقيمون الاعراس ، أين الاخلاق ؟
تسأله امرأته مستفسرة :

- ما بالك ؟

- ألا تسمعين الزغاريد ؟ أين الشرف ؟

انسرب من خيمته دون أن يهتم كوفيته ، وألقى امرأة واقفة بدهول ..

- ما بالك يا امرأة ، أجننت ؟

- ألم ترهم ، أبا عرب ، وشابين آخرين يحملون اسلحتهم ويتجهون الى الغرب ؟ انهم من الفدائيين ، يا الهي ، لو انك رأيتهم .

- أحقا تقولين ؟

- لقد اتجهوا الى الغرب .

ويتعذر المعجوز نادما :

- سامحيني يا ابنتي .

حاول المعجوز أن يراقب الشباب الذين أوغلوا بعيدا ، وضج يده اليمنى على عينيه ، كأنما يعتمر كل طاقته البصرية من أجل رؤيتهم . وبأسى يقول :

- انني لا أراهم .

- لقد تواروا ...

ويتنهد المعجوز :

- لينتي كنت شابا .

لم المعجوز جسده النحيل ، وفرص ، ثم علا نحيبه . بعض الناس خرجوا من خيامهم كالعادة ، وأخذوا يرسلون نظراتهم نحو الغرب .

قال أحد الشباب :

- سسمع اليوم أصواتا رائعة .

سمع من يقول :

- لماذا لا تسعهم .

ابتسم ، ولم يحول وجهه عن جهة الغرب ..

- ذات يوم .. سأتعهم .. هذا لا شك فيه .

(الرجال)

((أبو جابر)) :

تركت مخيم اليرموك ، خلفت ورائي وجوه الزملاء ، وضحكاتهم الباهتة ، وحوارهم المتواصل عن النكسة و ((فيفارا)) ، والثورة ، كدست كتيبي في صندوق خشبي عتيق ، وحررت جسدي من البدلة الصوفية الرمادية ، وفارقت ماضي ..

دمشق الآن تنام على سفح قاسيون ، عيونها ذابلة مسهدة ، والمخيم ، أعرف ليله الاسيان ، فالليل موسم الخوف في المخيم .

(الانتظار)

الى الشرق من نهر الاردن ، تمتد الخيام شريطا رماديا فانما .. في الليل تقوص في الظلمة ، ويحتم عليها الصمت ، يلعب الصغار طيلة النهار ، يبنون بيوتا من تراب ، ثم يهدمونها حين يهبط المساء ، وكل يتجه الى خيمته .. ربما وقف أحدهم للحظة ، مثل حيوان صغير الياف ، يتشمم بأنفه رائحة ما .. ويرسل نظراته الى الغرب حيث تتوهج أريحا ، وتنطفئ المخيمات القديمة ، ويهرول الصغير من جديد .. وفي قلبه ينفرس الشوق والالم ..

الاباء يشغلون أنفسهم طسوال ساعات اليوم بسماع المذياع واحتساء الشاي . يسأل واحداهم الاخر :

- ترى .. هل ستعود ؟

ربما يخيم الصمت ، ربما ينبع صوت حاد متألّم :

- ها .. ها .. تعود ؟ أنت تحلم يا رجل .

قد يعلق أحد الحضور :

- ربك سيفرجها ذات يوم .

... ويفتسلون بالندم والعذاب ، وتتشنج الافواه والعيون ، والاشواق .. ترى امامها رقصات شيطانية لا تفسر ، ويندفع بفتنة صوت عجوز حارب مع الاتراك :

- انني لا أعرف كيف هزمنا .. أهذه حرب ؟ كانت المصارك تستمر شهورا ، ايه .. تلك كانت حروبا بحق .

وتتلق امرأة تعد الشاي :

- نحن مجانين ، كان يجب ألا نهرب .

يرد الشيخ :

- العرض .. العرض غال يا امرأة ، انترك بناتنا لليهود ؟.. لقد ذبحوا شباب غزة ، وهتكوا الاعراض .

تقول المرأة بحدة :

- هذا أفضل من الغربية ، ألا ترى الهوان الذي نعيش

- عقل امرأة ، أنت لا تعرفين اليهود .

هكذا حسم الشيخ الحوار .. وينفض المجلس وكل واحد منهم يدعو الله أن تتغير الاحوال ، وتزفر الصدور آهات حرى ، حين ترسل العيون نظراتها عبر الظلام الكثيف ، صوب الطرف الاخر من النهر .

(زغرودة مع الفجر)

لم يعد الليل مظلما وكثيبا ، اذ تدوي كل ليلة الانفجارات ، وزخات الرصاص ، ممزقة الهدوء المريب في الجانب الآخر . يصعد الناس في مخيم الكرامة فوق سطوح المنازل المبنية من الطوب المشوي ، يتطلعون صوب أريحا والبحر الميت المستلقي تحت الشمس مثل سطح من الزجاج الأزرق اللامع . أحيانا تتصاعد الانفجارات من جهة مستعمرات بيسان ، أهالي مخيم الكرامة ومخيمات اللاجئين الجديدة يشتعلون بالحماس ، وتمترج مشاعر الدهشة بالاعجاب ، ويتساءلون :

- من أين يأتي هؤلاء الشباب ؟

ربما يجيب أحد الشباب بمنطق العارف :

- أنهم لا يأتون .. أنهم بيننا ..

ها انذا اطل بعد غياب مرير ، اعاقق باشواقى الراعبة ، ارضي
الدماء ، بدهشة الغريب وحيرته ، اطا حافة الارض غربي النهر ، دون
خوف ولكن باضطراب العاشق في لقاؤه الاول .. احاول أن السوي
وجهي الى الخلف ، لكني لا أقوى على ذلك ، فقوة مجهولة تشدني الى
الامام .. الاصبغ على الزناد ، والمخزن يفص بالطلقات .. وفجأة
ياني صوت الاب :

- عمك اعدمه الانكليز في حيفا ، ضحى بشبابه ، لكنه ربسح
شرفه ، لم يمش في القرية والذل مثلنا .
مرة أخرى قال الاب لي :

- تطول غيباتك عن البيت ، أنت تخفي عني أشياء هامة .
حاولت أن ابعده عن معرفة الحقيقة :

- أنا مضطر للسهر مع الزملاء للدراسة .
ومثل السيف كلمانه كانت صاعقة ، حاسمة :

- أنت تعمل معهم ، أنت تتدرب في حركة ما .. على كل هذا
ليس غارا ، أنت تسيير في الطريق التي اختارها عمك ، وهذا شرف .
أيها الاب البعيد ، المسافة لا تفصلنا ، انني أسير ، وها انذا مع
الرجال عيوننا تنور الدرب ، نصنع في الظلام انلاما من النور ، وحين
يهبط الليل تمام الحياة ، ونصحو نحن .
(أبو عائد) :

الكويت بعيدة الان ، (الطوز) يصفع الوجوه والعيون ،
والرطوبة تضغط الانفاس ، وانتظار نهاية الشهر لتسلم الراتب وتحويل
قسم منه للأسرة في مخيم (عقبه جبر) والخطيبة المنتظرة ، زينب
السمراء المثلثة الجسد ، كل هذه الامور تتلاشى مثل فقاقيع الزبد ،
تفور بعيدا ، كل تفاهات الاحلام الشخصية تنتهي مثل الكذبة السمجة .
- من أنا ؟

أنا الان ابن اللحظات الصغيرة هذه ، أنا الشاب الاسمر ،
القصير القامة ، الحاقد النظرات ، أبيت .. وأنت أيها الليبل
شاهد ، لن أبحث عن الاهل ، فلقد عرفت الطريق ، وها انذا الان مع
الرجال ، اعاقق الارض الظمأى ، وأسير بلا خوف ، وأعرف ان الموت
ينتظر بصلف وعجرفة ، لكن أقدامنا تندق ، تفرع الباب بعنف ،
مفتحة وغير هيابة .. لقد عرفنا الطريق لصدر امانا .
تدوي الكلمات في الرأس ، تلك الكلمات الحاسمة التي قتلها
وأنا أعرف ما أريد ..

- لن التمس لنفسي مهريا بعد الان ، بأن أقدم لكم بعض الدنانير
لاربح ضميري ، لقد صممت على العودة ، للعمل معهم هناك .

(أبو عرب)

- ما اسمك ؟

- أبو عرب ؟

- أهذا اسم ؟

- نعم ، نحن نحب الاختصار والوضوح .

أنا لا أحب الكلام الكثير الملل ، ولدتني أمسي عام ١٩٤٧ ،
حين كبرت بدأت أندرب ، ومنذ البداية عرفت طريقي ، ويوم التاسع
من حزيران بدأت عملي مع الرفاق .. كانت الضربة الاولى في احدى
المستعمرات .. الضربات الاخرى نسيتهما .. أسير الان مع رجلين
جديدين .. أقودهما وأنا أعرف الدرب والهدف ، الغريب انهمسا
يسيران ، وكانهما يعرفان الدرب بمثل خبرتي ..

الصمت والليل والبنادق ، هذه أغنيتنا ، مخيم الكرامة بعيد ،
ما زالت تضج في شراييني (زغرودة) امرأة الجيران ، وينفرك تحت
قدمي حجر صغير ، يخرج صوتا ، وكأنما هو زغرودة مكبوتة تطلقها
الارض .

حصلت على الشهادة الثانوية ، لم أبحث عن عمل ، القيت وظيفة
النجاح في علبه كرتونية مع ملابس القديمة ، حاول والدي أن يمنعي
في البداية لكنه أفلح عندما لمس اصراري ، ولقد لاحظت أخيرا ان
والدي تغير ، اذ انه اندفع مرة قائلا :

- أناخذونني معكم ؟

حين احتضنته أخذ يبكي على كتفي مثل طفل .

- اعتن بالاسرة يا ابي ، أما نحن فسنعرف كيف نقوم بواجبنا ،
ان الطبول تندق معلنة عسودة الانسان الفلسطيني الى الساح .
توقفت ، سألت ابا جابر :

- هل تعبتما ؟

واصل سيرهما بتجاهل واقدام .

قال أبو جابر :

- مع كل انفجار كنت أولد من جديد .

رد عليه أبو عرب :

- بعد فترة تدمن هذه الاصوات .

ثم امرهما :

- لتسرع أكثر .. ان كلابهم تفيق الان ..

وأخذت الاضواء البعيدة تتحرك مثل اللصوص .

قال أبو عرب في نفسه :

- ربما كان أهالي المخيمات يرسلون نظراتهم عبر الظلام بتشوف .
وتصاعدت في الليل أصوات أفعال الرجال الصامتين

بدوي هائل .

رشاد ابو شاوور

عمان

صدر حديثا :

حَرْبُ الْعَصَابَاتِ

تعوينتها الاساسية وعملياتها

تأليف ماو تسي تونج

ترجمة ناجي علوش

كتاب عملي لم يصدر بالعربية من قبل يبحث في الاساليب الاساسية لحرب العصابات كالكمانين
والهجمات المفاجئة وتدمير مواصلات العدو الخ ...

منشورات دار الطليعة بيروت - ص . ب ١٨١٣